الأدب واللّغة والمتغيّرات

Literature, language and variables

د. حفيظة مخلوف

جامعة الدكتور الطاهر مولاي سعيدة، الجزائر، makhloufhafida@yahoo.fr

تاريخ الاستلام2022/09/09 تاريخ القبول: 2022/12/09 تاريخ النشر: 2022/12/24

ملخص:

تشكّل اللّغة –وهي حاضنة الأدب– علاقة نوعية بين الإنسان وعالمه، فهو كائن عامل منتج، وعمله الواعي الهادف هو حقيقته. ويمكن أن تسبق الثقافة الأساس المادي الاقتصادي وتعمل على تغييره، وتقوده نحو هذا التغيّر. ولا يتحقّق شيء من ذلك إلّا عبر أخطر أداة ابتكرها الإنسان وهي اللّغة.

إذا استحضرنا خطوات تطوّر اللغة العربية فإنّها تؤكد مدى صلتها الوثيقة بالتحوّلات التي عرفها الواقع العربي منذ زمن بعيد وكيف أن اللغة أضحت تواكب مستجدَّات الحياة، غير أنها اليوم تعاني من أزمة المسايرة والإبداع لتظل حبيسة التكرار والتلقين، لذلك لا ينبغي أن نكتفي بالنظر إليها تلك النظرة العاطفية التي لا تسمن ولا تغني، بل ينبغي أنْ نعزّز تدريسها بالكفاءات، وأن يصبح أهلها منتجين في مجال العلم والمعرفة، وأن يشجع استعمالها على نطاق واسع في المجتمع.

كلمات مفتاحية: اللّغة، العربية، الصيغة، البنية، المعاجم.

Abstract:

Literature constitutes that qualitative relationship between man and his world, as he is a productive working being, and his conscious and purposeful work is his reality, and culture can precede the material economic basis and work to change it, and lead It towards this change.

If we recall the steps of the development of the Arabic language, it confirms its close relationship to the transformations that the Arab reality has known for a long time and how the language has become keeping pace with the new societies, but today it suffers from a crisis of keeping pace and creativity to remain trapped in repetition and lifelessness, so we should not be satisfied with looking at the language that emotional view Which is neither fattening nor enriching, but we should strengthen its teaching with competencies, and that its people become productive in the field of science and knowledge, and encourage its use on a large scale in society.

Keywords: Language; arabic; formula; structure; dictionaries.

1. مقدمة:

يعدّ البعد الثقافي مجموعة من المواقف والتصوّرات والعادات والتقاليد وغيرها ممّا يوصف بالإنتاج غير المادي، وقد يصبح هذا بدوره قوّة مادية لها فعلها إذا اكتملت الشروط في ظروف محدّدة. والأدب مثلا هو التعبير بالكلمة عن موقف الأديب/المثقف من المجتمع ومن الحياة.

فالبحث في اللّغة يتّخذ مساريْن: أحدهما يتناول اللّغة بوصفها أداة اتصال وتخاطب، والثاني يتناولها من حيث كونها أداة إبداع ما من شأنه أنْ يبتكر قاموساً غير مألوف. لكن ذلك كلّه لا يتحقّق بمعزل عن التحولات الاجتماعية ولا عن التفاعل الدائم بين اللّغة الرسمية مضبوطة القواعد واللغة العامية.

لذلك مهما اختلف الفلاسفة في تفسير الظاهرة الأدبية إلّا أنّهم يعودون دوماً إلى البحث عن مصدرها، وقد تجلّى هذا المصدر خلال العهود الأخيرة في التركيز على الواقع فنشأت مثلاً: الواقعية والواقعية الاشتراكية والالتزام وغير ذلك مما أوْحَت به الحياة والأفكار المستحدثة.

2. الأدب والحياة:

كثيرون هم الذين أشاروا إلى هذه العلاقة ومنهم الناقد والشاعر الكبير "**كوليردج**" عندما قال: **((الأدب نقد الحياة))**، هذه العبارة تعني أنّ الأديب يتّخذ موقفا من الحياة أو يقوم بتفسيرها أو التعليق عليها في أدبه. لكن نقد الحياة أو اتخاذ موقف منها أو تفسيرها يتطلب قبل ذلك تفهّمها أي يتطلب أن يتسلّح الأديب بوعي وفكر قادر على تفسير الظواهر الاجتماعية المتعدّدة وكشف أسبابها. أي لابدّ له من الإيمان بنظرية فلسفية تفسّر الفعل البشري وبواعثه وتحدد مهمّة الإنسان في الحياة وعلاقاته، وكلّ هذا لا يتأتّى له إلّا من خلال قراءاته ومطالعاته وخبراته إضافة إلى انغماسه التام في الحياة واحتكاكه الشديد بالبشر، ولابد

من المعاناة والمكابدة الفعلية أيضا ((ليحقّق المتعة أو المنفعة التي قال بها "هوراس" منذ أمد بعيد، ومؤكدا في الآن ذاته أنّ ثمّة أربعة عناصر تشترك في تكوين العمل الأدبي تتحدد في العنصر العقلي والعنصر العاطفي وعنصر الخيال والعنصر الفني أو عنصر التأليف والأسلوب))[1].

أدَّت نظرية الانعكاس في النصف الأول من القرن العشرين إلى الالتزام بالنهج الاشتراكي، نتجت عنه ترسانة من المفاهيم والمصطلحات غير المعهودة تصب فيما بدا للأديب من صميم القيم الإنسانية والعدالة الاجتماعية. والأدباء الذين يصدرون في أدبهم عن هذه الإيديولوجيا، يتّسم أدبهم بسمات ذات دلالة متميّزةٍ باختيار الموضوعات أو فنّ التشخيص أو بناء الأحداث وحتى في استخدامهم اللّغة.

لا شك إذن أنّ أيديولوجيا الكاتب تؤثر في رؤيته للأدب ودوره ووظيفته وتنعكس في العمل الأدبي موضوعا ومضمونا وبناء. وكما رأينا فإنّ الإيمان بالفرد العبقري الخلاّق أنتج أدبا مغايرا للتجارب الأدبية السابقة، ويمكن القول بأنّ تجربة الشعر المعاصر في أدبنا العربي قد نشأت نتيجة أسباب متعدّدة من ضمنها تمرّد الشعراء المعاصرين على الشكل العمودي.

وفي هذا السياق، يمكن أن نميّز بين أولئك الذين جعلوا المضمون يتصدّر الواجهة في العمل الأدبي والذين أغفلوا الدلالة الاجتماعية، وقصروا جهودهم على البنية والتشكيل اللّغوي، أو العكس، إذ إنّ الاهتمام بالإطار الفنّي واللّغوي والتشكيلي دون إعارة الفكرة أو الموقف يعدّ قاصرا، لأنّ العمل الأدبي في جوهره لا يخلو من موقف وإنّما طبيعة الموقف هي التي تمنح النص وزنه وتوازنه. فالأديب لا يكتب لنفسه كما أنّه لا يكتب لكي يبرز

مهاراته الفنية وبراعته اللّغوية فقط، وإنّما يكتب بوحي من مشكلة اجتماعية تؤرّقه وتقلقه، وهو يهدف من وراء كتابته أن يشاركه أكبر عددٍ ممكن من القرّاء في التفكير فيها أو تأويلها.

غير أنّ الأديب الملتزم بإيديولوجيا محدّدة يواجه تحديا كبيرا أو معادلة صعبة تتمثل في مدى قدرته على إقامة توازن دقيق بين الإيديولوجيا ومتطلّبات الصياغة الأدبية بحيث لا يطغى جانب على آخر. فالوعي الفكري لا يخلق أدبا وفنّا، كما أنّ اللعب بالزَخرفة والتّشكيل وعدم الاهتمام بالفكرة يؤدي إلى فقدان الأدب دوره وفعاليته. لذلك فإنّ المهمّة الملقاة على عاتق الأديب الناضج تتمثل في إقامة علاقة صحيحة بين الإيديولوجيا والأدب تتّسم بالتآزر والتآلف والانسجام. أي أنّ الأديب الناضج هو الذي يستطيع أن يقيم توازنا دقيقا بين وعيه الفكري ووعيه الفني.

وإذا كانت عملية الإبداع الأدبي في ضوء نظرية التعبير فردية وذاتية بالدرجة الأولى فإنّها نتاج لفعالية اجتماعية في ضوء نظرية الانعكاس التي ترى أنّ الإنسان كائن طبقي وأنّ همومه ومشكلاته جزء من هموم الطبقة التي ينتمي إليها، لذلك فإنّ الأدب انعكاس للعلاقات الاجتماعية وهو ظاهرة متطوّرة أي تؤثر وتتأثر بالواقع الاجتماعي، فكلّ منهما (الأدب والواقع) في حركة مستمرّة وتفاعل دائم أيضا.

3. اللغة والمتغيّرات:

لعلّ اللّغة تكون أهمَّ أداة ابتدعها الإنسان عبر تطوّره الحضاري. وقبل أن تصبح لغة أدبية يمتطيها ليسرح بخياله في أجواء تبدو غير مألوفة ومُشوِّقة، فقد ابتكرها كما ابتكر سائر الأدوات التي احتاج إليها في مسيرته الطويلة.

((فعندما صنع الإنسان الأوّل أداته الأولى، ثمّ صنع بعد ذلك أداة مشابهة لها، تُماثلها في النفع والقيمة، وأخذ يكرّر هذه العملية، أصبح لهذه الأشياء المتماثلة، المتشابهة معنى واحد واسم واحد كذلك. وهنا قامت اللّغة بوظيفتها التحديدية للأشياء ووظيفتها

التجريدية كذلك. فاللّغة تحدّد الشيء، تخرج به من غمرة الاختلاط الشامل في الطبيعة إلى التمييز والتفرّد والتحديد. وباللّغة يصبح هذا الشيء المحدّد المتميّز، فردا في فئة عامة))[2].

إنّ التعامل مع الأدب إبداعا ومادة وتلقيا يرتبط بمفاهيم محدّدة للإنسان ومهمّته وللعلاقات الاجتماعية السائدة وبرؤية مستقبلية، وعليه فإنّ الأديب يحاول في عمله الأدبي أن يجسّد رؤية مستوحاة من المجتمع والعالم، وكذلك الناقد في تعامله مع العمل الأدبي يصدر عن رؤيته للمجتمع وللعالم.

إذا استحضرنا مراحل تطوّر اللّغة العربية، فإنّها تؤكد ارتباطها الوثيق بالتحولات التي عرفها الواقع العربي منذ ما قبل الإسلام، وأنّ التقعيد نفسه استغرق زمناً طويلاً قبل أن يستقرَّ على هذه الحال. فالثورة التي أحدثتها الدعوة الإسلامية قسّمت المجتمع إلى مسلم وغير مسلم وأفرز ذلك قاموساً لغوياً لم يكن معهوداً (مسلم، كافر، مشرك، الجنّة، النار، الثواب، العقاب)، وسار على هذا النهج الكُتاب والشعراء وسائر المثقفين. ولمّا عادت الصراعات القبلية في العصر الأموي، عادت في الشعر أغراض المدح والهجاء والرثاء، بينما تميّزت بادية الحجاز بالغزل العذري المختلف، ما حمل كثيرا من الباحثين على أن يدرسوه من منظور نفسي جديد بالرغم من سهولة لغته.

ثم أفرزت التحولات التي عرفها العصر العباسي كثيرا من الظواهر، منها النزعة الشعوبية التي جعلت **أبا نواس** يسخر من الوقوف على الأطلال، فيقول:

فلِتِلْكَ أَبْكِي وَلَا أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ كانَتْ تَحُلُّ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاء

حَاشَا لِدُرَّةَ أَنْ تُبْنَى الْخِيَامُ لَهَا وأَنْ تَرُوحَ عَلَيْهَا الْإِبْلُ وَالشَّاءُ

وأكثر من هذا هناك من تجرَّأ على مخالفة القواعد فعُدَّ كلامه شذوذا، كما هو الحال عندما أدخل **الفرزدق** "ال" على المضارع المبني للمجهول على أنّها موصولة بينما هي في عرف اللّغويين تدخل على الصفة الصريحة وذلك في قوله:

ما أنت بالحَكَم الْتُرْضى حكومتُه ... ولا الأصيلِ ولا ذي الرأيِ والجدَل

وبعدما كان الشاعر القديم يميل إلى التشبيهات الحسية، نزع الشعراء لاحقاً إلى استعمال الصور المجرّدة بعد تطور الفكر الفلسفي حتى قيل **لأبي تمام:** لماذا لا تقول ما لا يفهم؟ فأجاب ولماذا لا تفهمون ما يُقال؟،

وإذا كان الشاعر ينتصر للمذهب الشيعي كما **ابن هانئ**، فإنّه يغالي في مدح الحاكم الفاطمي بأوصاف تستعصي على الفكر والذوق، كأن يقول:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار .... فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنّما أنت النبي محمّد .... وكأنما أنصـــارك الأنصار

ولمّا اتَّسعت دائرة المعارف والعلوم اضطر العرب المسلمون إلى البحث عن وسائل تساعدهم على تخزين المعلومات وتسهيل حفظها فابتكروا النَّظْم.

لكن تطور اللّغة بالقياس إلى المتغيّر الثقافي، يتميَّز بالبطء والمحافظة بالرغم من التفاعل الدائم بين البُعديْن اللّغوي والثقافي. ثمَّ إنّ القاموس اللّغوي الجديد عادة ما يستغرق زمناً طويلا قبل أن تتسرَّب الألفاظ والتراكيب الجديدة إلى اللّغة الرسمية. وقد أنشئت المجامع اللغوية بغرض تعريب ما يستجدُّ من المصطلحات الأجنبية لتتماشى مع أصول العربية وقواعدها، لكن إلى الآن كما يؤكد د." **السعيد بوطاجين**" أنّه: ((لم يكن هناك صفاء في التعامل مع المفاهيم المنقولة إلى العربية، وقد تجلّى ذلك في مستويات استقبال المصطلح وتذبذبه، بالنظر إلى مؤثرات مركَّبة، أهمّها الجانب المعرفي، الذي ظل بحاجة إلى تأثيث

يستدعي الإلمام باللّغة المهاجرة واللّغة المهاجر إليها، العربية واللّغات الأخرى، التي نتعامل معها في الوطن العربي: الانجليزية، الفرنسية، الروسية))[3].

لعلَّ أهمّ مؤثر في اللّغة هو الإبداع من حيث أنّه يجعل من اللّغة المألوفة تبدو وكأنّها غير مألوفة. فهناك فنون بذاتها تبدو مستهجنة ومرفوضة في البداية لكنّها تفتكُّ مكانتها مع مرور الزمن ويصبح الاعتراف بها أمراً حتمياً، حدث ذلك مع فنّ الموشحات ثم شعر التفعيلة إلى أن وصلنا إلى قصيدة النثر. وأخيرا تجربة الهايكو، فبفعل التحولات فإنّ التغيير قد يطال اللفظ أو الصيغة أو البنية كما يحدث في القصيدة الشعرية أو الكتابات السردية.

في العصر الحديث أدى انقسام العالم إلى معسكرين رأسمالي واشتراكي إلى دخول كثير من المفاهيم والمصطلحات مثل الإمبريالية والاشتراكية والالتزام واليمين واليسار والوسط وعلاقة ذلك بالسياسة وحيث المضمون يتصدر الواجهة:

يقول "**محمود درويش**" مثلا: ((يجب الذهاب إلى اليسار...يجب التوغل في اليمين...يجب التمترس في الوسط)).

عرفت الجزائر خلال حرب التحرير كلمات: (المجاهد والمسبل والحرْكي...)، وفي سبعينيات القرن الماضي لمّا اختارت النهج الاشتراكي شاع بين الناس استعمال (الثورة الصناعية والزراعية والثقافية والقرية الفلاحية والمستفيد) وغيرها ثم سرعان ما اختفت وحلَّت محلها في التسعينيات: (الإرهاب والجماعة والتعددية...). وصدرت عناوين أدبية دالة ومستوحاة من فترات مختلفة وتتضمّن النصوص فيضا من القاموس الذي أفرزته كل فترة فضلا عن إدراج الألفاظ العامية والأمثال الشعبية، بصرف النظر عمَّا إذا كانت تلائم السياق أم جاءت مقحمة.

غيـر أنّ التحـولات الثقافيـة والاجتماعيـة المتسـارعة تفـرض حضـورها ولـو بإدخـال المصـطلح الأجنبـي بـلا تعـديل، خاصّـة وأنّ المجـامع اللّغويـة أصـبحت عـاجزة عـن مواكبـة التطور السريع للمنجزات العلمية والتكنولوجية التي ينتجها الآخر ولا حصر لها.

وظـاهرة النحـت اللّغوي معروفـة فـي العربيـة كقولهم: (حمـدل وحوقـل). فعنـدما يعبـر باللّفظ المنحوت موقف صحيح لا يتعارض مع الأصول يكون مقبولا كما حصل مع الكاتب **(إميل حبيبي)** حين عبّر عن "سعيد أبي النحس"، وهي شخصية يجتمع فيها نقيضان كما هو واضح من تسميته، فنحت كلمة: (المتشائل) ليعبّر عن هذه الحالة بلفظ غير معهود، فقال على لسانه:

((خذني أنا مثلا، فإنّني لا أميز التشاؤم عن التفاؤل فأسأل نفسي من أنـا؟ أمتشائم أنا أم متفائل أقوم في الصباح من نومي فأحمد الله على أنّه لم يقبضني في المنام فإذا أصابني مكروه في يومي أحمده على أن الأكره منه لم يقع فأيهما أنا أمتشائم أنا أم متفائل؟))[4].

أو كما عبّر الشاعر **(عز الدين المناصرة)** عن الموقف الانتهازي للذين ليسوا حاسمين لا في صداقتهم ولا في عداوتهم فقال "الأعدقاء"، أو كما يفضّل البعض أن ينادوهم اللدودون الودودون.

اللّغة وطن مشترك تتميّز بقدرتها على الانفتاح على الآخر، وأداة تواصل ليست ملكا للعرب وحدهم، هي ملك لمن يحبها يدافع عنها حينا ثمّ يتصرف بما تحمله من كنوز فيطوّعها حسب سياقه حينا آخر لتتماشى وحاضره وهي لغات رسمية في المنظمات الدولية، إحدى اللّغات الست في منظومة الأمم المتحدة يجرى الاحتفال بها في اليونسكو في 18 من ديسمبر كإحدى اللّغات الرسمية والخامسة في العالم من حيث أهميتها ومن حيث عدد الناطقين بها، متواجدة في ستين دولة ما يعني أنّ انتشارها الجغرافي واسع ويستمرُّ في الاتّساع.

في العصر العباسي تبادل العرب العلوم لمئتي عام، وهي بحق زاخرة بالترجمة في شتى المعارف والعلوم كالفلسفة والأدب والتاريخ والسِّيَر والقواعد والطب والرياضيات وعلم الفلك وغيرها، وهي لا تزال حيّة.

في القرن السادس عشر سنة 1587م، قرَّر الملك هنري الثالث وعملا بتوصية سلفه الملك فرانسوا الأول إنشاء أوّل منبر للّغة العربية في كوليج فرنسا، وهي مؤسسة عريقة للغاية. وقد أثنى أدباء النهضة الفرنسية على اللّغة العربية لأنّها لغة تحفّز العقل ولديها القدرة على انفتاح أكبر، لكن لكي تواكب اليوم أصول الانتشار والانفتاح على العالم ينبغي أن تواكب التطور والتجدّد.

فإذا أردنا البقاء للّغة العربية فلا يكفي الموقف العاطفي اتجاه اللّغة وإن كان ضرورياً، بل لابد من الوقوف على الصعوبات التي تحول دون تيْسير نحوها وصرفها. إذ ((طالب اللّغة العربية يتميَّز بما يخسره من وقت وجهد في تعلّم شيء آخر على هامش القراءة والكتابة هو "علم النحو" الذي يتعذَّر ضبطُه على غير القلّة من المتخصِّصين. وترتكز هذه المشكلة فضلا عن خسارة الوقت والجهد، في صعوبة إتقان لغة التلاوة– الإلقاء))[5].

4. خاتمة:

نحن اليوم أمام رهان صعب عندما يتعلق الأمر باللّغة العربية، فقد شاع استعمال العامية في الفن المسرحي في مرحلة النضال الوطني بحكم ضرورة تبليغ المضمون الكفاحي ضد المستعمِر وفي ظلال الاستقلال أيْضاً، ولكن بعدما أصبحت اللّغة العربية رسمية ولغة التعليم، فلكي نرتقي بها ينبغي أن نضمن لها بعض الشروط، منها:

الأول: الحرص على تطوير طريقة التدريس وخاصّة ما يتعلق بتيسير القواعد كما نادى بذلك كثيرون. والعمل على تضييق الهوة بين الفصحى والعامية باستغلال ((بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر))، كما يؤكد البشير الإبراهيمي وجود هذه الظاهرة في بلادنا. فلم يعد التدريس يعتمد على التلقين، بل فرضت المناهج الحديثة قاموساً لغوياً جديدا يقتضى فلسفة جديدة من ذلك: "العملية التعليمية/التعلمية، التدريس بالأهداف أو بالكفاءات" وما يتفرّع عنها من مصطلحات متنوّعة.

الثاني: أن يصبح أهلها منتجين في مجال العلم والمعرفة بأن يخرجوا من دائرة الاستهلاك والتلقي السلبي، فضلاً عن أنْ يصبح المجتمع قوّة اقتصادية لها فعلها في الدوائر العالمية.

الثالث: أنُ يشجع استعمالها على نطاق واسع في المجتمع، لأن اللّغة التي تبقى حبيسة مادة دستورية قانعة بها أو لا تستعمل إلاّ في خطب جوفاء ستموت كما يموت أصحابها وترمى يوما في المعاجم. أو كما يقول **درويش:**

لا تَذْكُرِ الموتى، فقد ماتوا فُرادى أَو عواصمْ
سأراك في قلبي غداً، سأراك في قلبي
وأجهشُ يا ابن أُمّي باللُغَهْ
لغةٍ تُفَتِّشُ عن بيتها عن أراضيها وراويها
تموتُ ككُل مَنْ فيها وتُرمى في المعاجمْ.

الرابع: ضرورة الترجمة والتحكُّم في لغة العلوم والتكنولوجيا وتفتُّح المجتمع على التعدُّد اللّغوي، ولا تسارع المنظومة التربوية إلى تفضيل لغة وإقصاء أخرى لأسباب عادة ما تكون انفعالية أو سياسية عابرة.

5. الهوامش:

[1]– عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، 1968، ص ص 21–23.

[2]– محمود أمين العالم، الثقافة والثورة، دار الآداب، الطبعة الأولى، أكتوبر 1970، ص 308.

[3]– السعيد بوطاجين، الترجمة والمصطلح: دراسة في إشكالية المصطلح النقدي الجديد، منشورات الاختلاف، 2008، ص 09.

[4]– أميل حبيبي، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، تونس، دار الجنوب للنشر، 1982، ص 40.

[5]– هادي العلوي، المعجم العربي الجديد، سورية –اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1983، ص 19.

6. قائمة المراجع:

- أميل حبيبي، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، تونس، دار الجنوب للنشر، 1982.
- السعيد بوطاجين، الترجمة والمصطلح: دراسة في إشكالية المصطلح النقدي الجديد، منشورات الاختلاف، 2008.
- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، 1968.
- محمود أمين العالم، الثقافة والثورة، دار الآداب، الطبعة الأولى، أكتوبر 1970.
- هادي العلوي، المعجم العربي الجديد، سورية –اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1983.